مسجد المدجنين بطليطلة

بقلم السيد محمود عبد العزيز سالم

فقدت طليطلة تفوقها السياسى والكنسى إزاء السيادة التى فرضتها عليها قرطبة حاضرة الخلافة الأموية بالأندلس ؛ وكانت تضم أكبر طائفة من المستعربين واليهود ، ونعنى بالمستعربين أفراد الشعب الإسبانى الخاضع للعرب مع احتفاظه بدينه ونظمه بقدر الإمكان ، وكانت مزاجاً لعناصر وتقاليد لاتينية قوطية وأخرى عربية تمتد تاريخها حتى القرن الثانى عشر ، وذلك بعد أن انتزعهم الموحدون من بيئتهم الأندلسية . وقد ساهم موقع طليطلة فى مناعتها إذ تقع فوق نشز عظيم الإرتفاع ويحيط بها وادى تاجة من ثلاث جهات مما جعل أمر تحصينها يسيرا ؛ فقد سورت من جهة الشمال فقط وفتح فى هذا السور الشمالى بابان : أحدهما شرقى ويعرف بباب القنطرة لأنه كان يفضى إلى قنطرة وادى تاجة ويقال أن المنصور بن أبى عامر قام بإصلاحه [1] بينما يذكر السنيور جوميث مورينو ، معتمدا فى ذلك على ماورد فى نقش تذكارى وُضع عند ترميم القنطرة عام ١٢٥٩ ، أن خلف بن محمد العامرى قائد طليطلة هو الذى قام ببنائه عام ٩٩٧ [2] ؛ والباب الثانى غربى ويسمى بباب شاقرة وكان قائما زمن الخلافة وسمى باسم المنطقة الخصبة التى يشرف عليها [3] وقد كان لطبوغرافية طليطلة وطبيعة سكانها أثر كبير فى حركاتهم الثورية المتعددة وميولهم الانفصالية عن سلطان قرطبة ، ويروى ابن القوطية كيف أوقع الحكم الربضى عام ٧٩٧ بأهل طليطلة واستلحم عندما استخفوا بواليه عمروس الوشقى المعروف بالمولّد [4] .

(١) Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, t. III Paris 1953, P. 352

(٢) Gómez Moreno : Ars Hispaniae, t. III, Madrid 1951 P. 198

(٣) انظر الفصل الذى عقده آنخل جونثالث بلنثية عن طليطلة فى كتابه :
A. Gonzalez Palencia : Moros y Cristianos, Madrid, 1945 P.P. 194-208

(٤) ابن القوطية القرطبى : تاريخ افتتاح الأندلس طبع مدريد ١٨٦٨ ص ٤٦

ثم انضوت طليطلة تحت لواء الخلافة القرطبية منذ عام ٩٣٠ بعد سنوات طويلة من الثورات ، وانتظمت أمورها فى ظل خلافة عبد الرحمن الناصر ، فازدهر فيها فن العمارة ، وانغرطت من الوجهة الفنية فى سلك الأسلوب المعمارى الشائع فى قرطبة بعد أن دخلت طليطلة فى فلك الخلافة الأموية . فقد بنى فيها أحد أهالى طليطلة واسمه فتح بن إبراهيم الأموى ويعرف بابن القشّارى مسجدين أحدهما بالجبل البارد والثانى بالدباغين ، وبنى حصن وقش ومكادّه (١)، كما بنى موسى بن على البنّاء وسعادة فى محرم سنة ٣٩٠هـ (يناير سنة ١٠٠٠ م) المسجد المعروف بالباب المردوم من مال أحمد بن حديدى (٢) ، وكان مسجدا ثانويا بالمدينة ، حوّل إلى كنيسة بعد استرداد طليطلة بقليل ثم اطلق عليه اسم سانتاكروث ، ووهبه ألفونسو الثامن لإحدى الجمعيات الدينية ثم أضيف إليه بعد ذلك من جانبه الشمالى الشرقى رأس على هيئة حنية من الطراز المدجن ومازال هذا قائما إلى وقتنا هذا . وعقوده متجاوزة ومفصصة تتعاقب فيها كتل الحجارة وقطع الآجر على النحو الذى نراه فى جامع قرطبة . كما نرى فيه شاهداً آخر يثبت تفوق فن الخلافة ، ويتجلى ذلك فى نظام التقبيب القائم على تقاطع الضلوع فى صور مختلفة .

ومن آثار مساجد هذا العصر عدة مصليّات كنيسة منها مصلى نويسترا سنيورة دى بيلين بدير سانتافى ، ومصلى كنيسة سان لورنثو ، وفيهما مايذكر بعقود المسجد الجامع بقرطبة وكنيسة سان سلفادور (٣) . ويشير نص كتابى على أنها كانت مسجدا بنى من أموال الجوس عام ١٠٤١ ، وقد حوّل هذا المسجد عام ١١٥٩ إلى كنيسة سان سلفادور مما يدل على أن المدجنين وهم المسلمون الذين خضعوا تحت حكم المسيحيين وبقوا محتفظين بدينهم وتقاليدهم

(١) ابن بشكوال (أبى القاسم خلف بن عبد الملك) كتاب الصلة، الجلد الثانى نشره فرنسكو كودىرة ، مدريد ١٨٨٣ ص٤٤١

(٢) Ocaña Jiménez : La inscripción Fundacional de la mezquita de Bib Mardom, Al-Andalus. 1949

(٣) Lambert : Tolède, (: les villes d'art célèbres), Paris 1925, P. 28

ظلوا يؤدون فيه شعائرهم الدينية حتى ذلك التاريخ وقد أمكن بفضل ما اكتشف من آثار المسجد إعادة تخطيطه القديم ببلاطاته الخمس .

ولما اشتعلت نار الفتنة الكبرى على أثر سقوط الخلافة القرطبية وقامت دول ملوك الطوائف ، استقل بنو ذى النون بطليطلة ، وبلغت هذه الأسرة فى البذخ والترف الغاية [1] .

وفى أيام القادر بن ذى النون ، استفحل أمر ألفونسو السادس ملك قشتالة ، فاكتسح البسائط وأخذ يضيق الخناق على القادر بالله حتى اغتصب منه طليطلة فخرج له عنها سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥) [2] تظير مظاهرة الفونسو له على أهل بلنسية ، وحاول المرابطون ومن بعدهم الموحدون استردادها دون جدوى . وقد بلغت حضارة طليطلة الذروة فى عهد أسرة ذى النون ، واشتهرت بعلماء الرياضة والفلك ، كما عرفت بصناعة الأسلحة وصناعة اللعب العاجية وعمل الاصطرلابات وقد ذكر ابن بسام أن القادر شوهد يوم خروجه من طليطلة " وبيده اصطرلاب يرصد فيه أى وقت يرحل وعلى أى شئ يعوّل وأى سبيل يتمثل " ، وفى متحف الآثار الأهلى بمدريد اصطرلاب صنعه ابراهيم بن سعيد الموازينى السهلى عام (١٠٦٧) [3]

شرع ألفونسو بعد عشرين عاما من سقوط طليطلة فى تغيير المسجد الجامع بها سنة ١١٠٤ ، فنصب فى صومعته ناقوسا " تأنق فى إبداعه وتجاوز الحد فى استنباطه واختراعه " [4]

(١) شيد فيه المأمون بن ذى النون قصرا تأنق فى بنائه وأنفق فيه مالا كثيرا وصنع فيه بحيرة وفى وسطها قبة وسبق الماء إليها وأتبعها فى تدبير أحكمه المهندسون . انظر : المقرى ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب طبعة محيى الدين عبد الحميد ج ٦ ص ٨٥ — ابن بسام الشنتريني ، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة قسم رابع من المجلد الأول ص ١٠٢ — ١٠٣ — راجع مقالنا : التصور الإسلامى فى الأندلس — مجلة ، العدد العاشر ص ٩٢ — ٩٤

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٤١٩

(٣) ابن بسام : المرجع المذكور سابقا ص ١٣٠

(٤) Sauvedra (eduardo) : Astrolubios arabes que كذلك Lambert, op - cit. P. 22 se conservan en el museo arqueológico nacional, P. 396

وكانت التأثيرات الفنية الإسلامية على المجتمع المسيحى قد تأصلت منذ سقوط طليطلة فى أيدى النصارى ، وقد أباحت معاهدة التسليم فى طليطلة للمسلمين الإقامة مع المسيحيين فى حوماتهم دون اتخاذ حى خاص بهم كما حدث فى المدن المستردة الأخرى [1] ، وضمنت إقامة المسلمين فى طليطلة تحت حكم المسيحيين استمرار الزراعة والصناعة والفن ، وكان المسلمون يؤلفون اليد العاملة فى كل هذه الميادين . وأخذ المسلمون يمارسون شعائر دينهم أول الأمر فى أحد المساجد التى خصصت لهم ، على أنهم منذ أن انتزع منهم المسيحيون مسجدهم الجامع عام ١١٥٩ ، عمدوا إلى أن استبدلوا به مسجدا آخر ، حاولوا إخفاءه اتقاء نقمة بعض المتعصبين فى بلاط ألفونسو الثامن من الفرنج الذين كانوا يتربصون بهم السوء ، ولعل هذه التقية تمكن أن توضح لنا الوضع الشاذ الذى اتخذه " مسجد المسلمين " ، وهو مسجد ورد ذكره فى ثلاث وثائق نشرها آنخل جونثالث بلنسية فيها ذكر اسم " مسجد المسلمين الواقع فى ربض الإفرنج بمدينة طليطلة حرسها الله " [2]

وربض الإفرنج أو حومة الإفرنج حسب ما ورد فى وثيقة أخرى يرجع إلى سكنى الفرنسيين له ، وكان حيا تجاريا أو سوقا كبيرا ، يقع بجوار الكاتدرائية وكان يعمل فيه الصرافون والعطارون والكمادون والحصارون واللجامون . وكان هذا المسجد يقوم فى طابق علوى بعيدا عن أنظار الفرنسيين ولكن الإسبان كانوا يعلمون بوجوده وكان معروفا لديهم حتى مطلع القرن السادس عشر [3] حين طرد المسلمون نهائيا من الأندلس .

(١) Gonzalez Palencia (A.) : los Mozárabes de Toledo, en los siglos XII y XIII, vol. Prolimenar, madrid, 1930, P. 152

(٢) وثيقة ٩٠٤ (يونيو ١١٩٠) ج ٢ ص ١٧٥ Gonzalez Palencia, op. cit.,
وثيقة ٩٤٤ (١١٩٩) ج ٣ ص ٢٤٣ ، وثيقة ٣١٧ (١٢٠٢) ج ١ ص ٣٥٧

(٣) Gómez Moreno op. cit, P. 210

وتخطيط البناء من أسفل يكشف فى خفاء شديد عما فوقه ، وقد اهتديت إلى موضع هذا المسجد الغريب وقمت بدراسته طويلا فى رفقة أحد رجال الآثار الأسبان وهو السنيور دون إميليو جارثيا رودريجيث عضو المجمع الملكى للفنون والعلوم التاريخية بمدينة طليطلة [1] . كما صحبت حضرة الأستاذ الدكتور عبد العزيز مرزوق لزيارته فى صيف عام ١٩٥٢ .

هذا المسجد يسمى اليوم دار الدباغين Casa de las Tornerias وقد اعتقد الأستاذ مارسيه [2] أنه منزل وسماه الأستاذ لامبير دار الدباغين رغم اعتقاده بأنه كان مسجدا [3] . وعلى الرغم من صعوبة دراسة هذا الأثر بسبب ما فيه من سدود وثغرات فقد أمكن للعالم الأثرى دون مانويل جوميث مورينو دراسته بعناية [4] . وطابقه الأدنى وطوله ٨٠ و ٨ م وعرضه ٨ م لا يُعرف الغرض منه ، ويغلب على الظن أنه كان يتخذ بيتا . أما الطابق العلوى فيحتفظ بنظام المسجد وإن كان المحراب يقتصر على مجرد عقد بسيط . ومن المحتمل أن جوفة المحراب الأصلى هدمت وحفر بدلا منها صليب كما يتضح من الصورة .

ويشغل الباب الركن الشمالى الغربى من هذا المسجد ؛ ويبلغ طول بيت الصلاة ٨ر٩٠ م وعرضه ٦٥ و٧ م ، وأقصى ارتفاع له فى الوسط

(١) كتب السنيور جارثيا رودريجيث مقالا عن هذه الزيارات فى مجلة Toledo: Ayer y Hoy تعلم تذاك العدد ٢٤ (أغسطس – سبتمبر ١٩٥١) ص ٨ – كما نشر فى جريدة طليطلة صحيفة Alcazar ، الصادرة فى ١٤ سبتمبر ١٩٥١ عن هذا المسجد وأهميته . وأشارت جريدة A. B. C. التى صدرت فى مدريد فى ٦ يوليو سنة ١٩٥٤ إلى أهمية هذا الأثر الجليل ودعوتى إلى اصلاحه وترميمه إذ أنه مهدد بالسقوط والانهيار .

(٢) Marçais (G.) : Manuel d'art musulman, t. I, P. 241 . لم يشر الأستاذ مارسيه إلى هذا المسجد فى كتابه الحديث L'architecture Musulmane d'Occident, Paris 1955

(٣) Lambert : L'architecture musulmane du Xe siècle à Cordoue et à Tolède gazette des Beaux-arts, t. XII, 1925, P.P. 142-147

(٤) Gómez Moreno : op. cit. P. 210

٦٠ و٦ م . وينقسم المسجد شأنه فى ذلك شأن مسجد الباب المردوم إلى اثنى عشر عقدا متجاوزة تقوم على أربع أعمدة وسطى بحيث تقسمه إلى تسع أساطين مربعة ، أوسطها تعلوه قبوة من الضلوع قوامها أربعة عقود نصف دائرية متقاطعة فيما بينها اثنان رأسيا واثنان أفقيا ، وفى هذا تشبه هذه القبوة إحدى قبوات مسجد الباب المردوم ويشغل كل مربع من المربعات التسعة الناشئة من هذا التقاطع قبيبات صغيرة يتقاطع فيها عقدان صغيران فى شكل صليبى . وهو تطور غريب لقبوات مسجد الباب المردوم . فبدلا من وجود تسع قباب تعلو كل منها أسطوان من الأساطين التسعة لمسجد الباب المردوم ، اجتمعت القباب التسعة فى قبوة واحدة تغطى الأسطوان الأوسط من مسجد المدجنين بينما غطيت الأساطين الأخرى بقبوات نصف أسطوانية ذات أربعة مقاطع رأسية .

وأعمدة هذا المسجد قصيرة منتولة ، لا قواعد لها ، وتيجانها مفككة .

عنصر الزخرفة :

يخلو المسجد من عنصر الزخرفة المنصقة بالبناء كما هو الحال فى مسجد قرطبة ، وإنما تقتصر الزخرفة على الحلية المعمارية التى تنشأ من عنصر البناء نفسه فعمارة البناء كلها من الآجر تكسوها طبقة جصية ازدانت بخطوط ملونة باللون الأحمر . وتقتصر الزخرفة على عدة عقود زخرفية .

وتتعاقب سنجات عقد المدخل هبوطاً و بروزاً ، وينبت من أركان القبوات أشرطة بارزة تحلى قاعدة القبوات . وفى أعلا جدران الأسطوانات الثلاثة الموازية لجدار المحراب نوافذ وهمية يزينها عقد ثلاثى الفصوص ثم عقد متجاوز فعقدين توءمين متجاوزين بينهما عمود صغير ، وعقدا النافذتين الأولتين مسنجان ، ولكن عقدى النافذة الثالثة أمليان . ويحيطها جميعاً أطر بارزة تمتد إلى أرجل العقود .

ذلك هو مسجد المسلمين وقد أصبح مظهره اليوم يثير الأسى ، فقد أهمل منذ أن هجره أصحابه ، وجعل بعد ذلك مستودعاً للخرائب والأنقاض وأدمجت

إحدى أساطينه فى منزل مجاور له ، وأخذ الجير والسناج يتنازعان فى تبشيعه حتى اسود جسمه الأوسط إذ كان أثراً لأحد مصانع الشموع ، واحترقت أعمدته وتناكب عقوده وصار اليوم مخزناً لبراميل الخمور .

ومع ذلك فلهذا المسجد أهمية كبرى باعتباره المثل الوحيد لمساجد المدجنين فى عصر الاضطهاد مما يفسر وجوده فى الطابق العلوى ، ثم أن قبوته على الأقل تمثل مرحلة جديدة من مراحل تطور القبة ذات الضلوع من العمارة إلى الزخرفة ، من الفكرة المعمارية البحته التى نشهدها بادىء ذى بدء فى قباب جامع قرطبة إلى الفكرة الهندسية التى تتجلى فى قبوات مسجد الباب المردوم بطليطلة [1] وتشهد بهذا الاتجاه الزخرفى الذى انحدر إليه عرفاء المسلمين والذى نراه يبلغ أوجه فى قبة المحراب بجامع تلمسان .

(١) أنظر مقالنا : أثر الفن الخلافى بقرطبة فى العمارة المسيحية باسبانيا وفرنسا ، المجلة العدد ١٤ ص ٧٣ — ٨٨

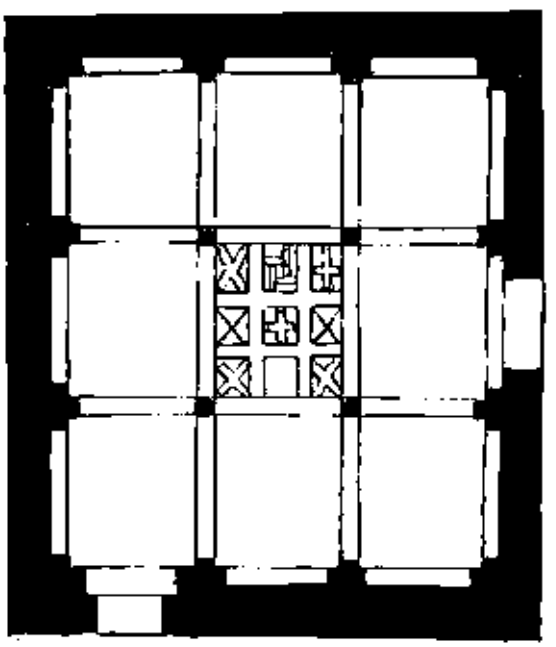

خطة جامع السلطان بطليطلة

(شكل ٢)

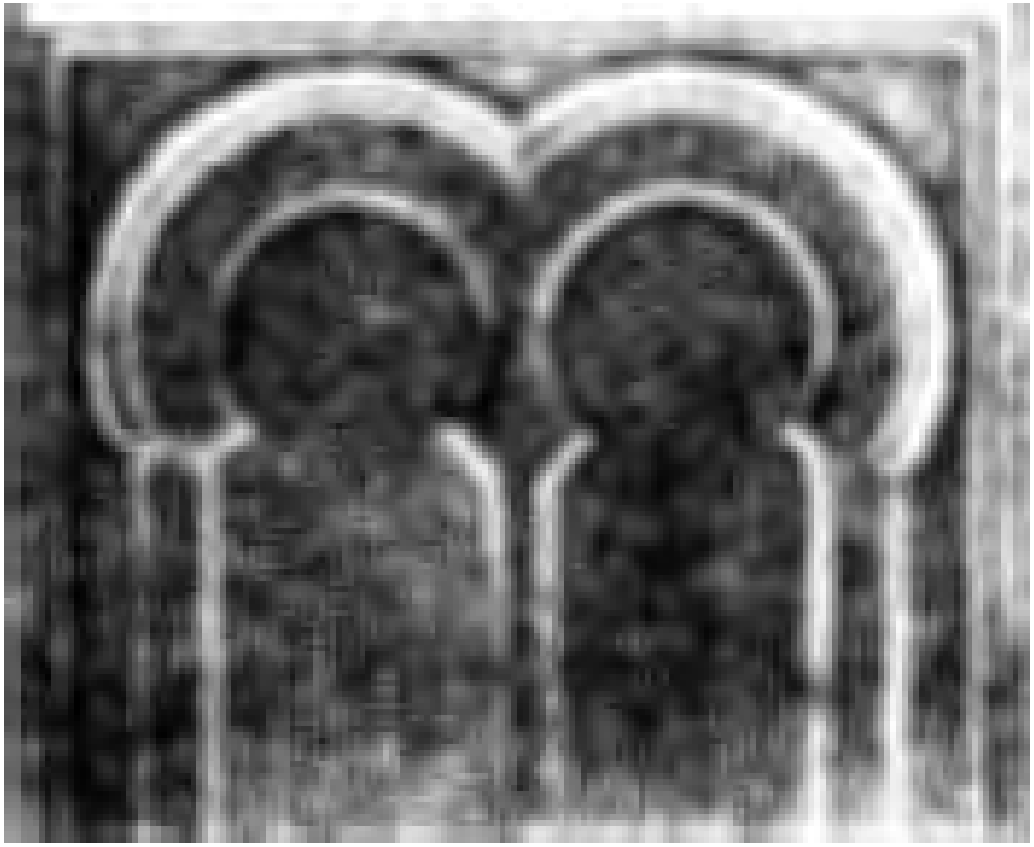

(شكل ٤) نافذة مزدوجة العقد بمسجد المستنصر

(شکل ۲) میکدهٔ غرب مسجد المسلمین